ترجمة بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم
بين هاجس النقل السليم وأسرار الصناعة البلاغية

عبدالله الرشدي

أستاذ التعليم العالي، دار الحديث الحسنية، الرباط

ملخص:

يتناول هذه الدراسة ترجمتين اثنتين لمعاني القرآن الكريم باللغة الفرنسية؛ أولاهما لمحمد حميد الله، والثانية لأحمد دروس؛ ويرصد البحث بعض صور التقديم والتأخير في القرآن الكريم، أغراضا، ودلالات، ونكتا من جهة؛ ويرصد من جهة أخرى الإشكالات التي يثيرها نقل هذا الأسلوب الركن من أساليب البيان العربي.

Abstract

This study deals with two different and differing French translations of the meanings of the Quran: the first is of Mohamed Hamid Allah and the second of Ahmed Derrous. It focuses essentially on the inversion techniques of rhetorical images of the Holy Quran.

Key Words: Rhetorical Images, Holy Quran and Images, Inversion Technique, Translation, Interpretation

مقدمة:

أستهل مقالي العلمي بالأسئلة التالية :

– ما المقصود ببلاغة النص القرآني؟

– هل يدخل ضمن مهام المترجم نقل بلاغة نص له من الخصوصية ما يجعلنا نقر سلفا باستحالة تحقيق الغاية من عملية الترجمة؟

– ما حدود آفاق نجاح المترجم وإخفاقه في عملية نقل بلاغة النص القرآني نقلا سليما؟

– ما الأسباب التي تجعل عملية نقل بلاغة القرآن فعلا متعذرا؟

_ ما الإشكالات التي تثيرها عملية نقل هذا المستوى من مستويات نص القرآن الكريم؟

– كيف السبيل للتغلب على هذه الإشكالات، حتى تتقلص دائرة الضياع، وتكبر حظوظ الإمساك بالنصيب الوافر من أسرار بلاغة النص القرآني؟

ينطلق البحث في هذا الموضوع من ترجمتين اثنتين لمعاني القرآن الكريم باللغة الفرنسية ؛ أولاهما لمحمد حميد الله (ت 2002م)، والثانية لأحمد دروس؛ وهو اختيار له ما يبرره من الزاوية المنهجية؛ ويرصد البحث بعض صور التقديم والتأخير في القرآن الكريم، أغراضا، ودلالات، ونكتا من جهة؛ ويرصد من جهة ثانية الإشكالات التي يثيرها نقل هذا الأسلوب الركن من أساليب البيان العربي .

إن القصد من تتبع جهود المترجمين في هذا المستوى ليس هو إثبات الإخفاق، وتسجيل العجز، وعدم القدرة على المجاراة، أو ما شاكل ذلك، بقدر ما يتلخص الهدف في رصد المنجز في باب نقل بلاغة أسلوب التقديم والتأخير، حتى نحيط ببعض أسرار هذا التركيب في القرآن الكريم، ونتبين مقدار الجهد الذي بذله المترجمون للإحاطة بتلك الأسرار، وننبه على المزالق التي تشوب عملية النقل إلى اللغة الهدف، ونؤسس لبناء لنموذج يكمن احتذاؤه في ترجمة هذا الأسلوب البياني.

وقد بنيت عرضي على تمهيد ومبحثين وخاتمة.

تمهيد:

أعجز القرآن الكريم ببلاغته الخلق أجمعين، فأبهرهم بيانه، ولفظه، وعجيب نظمه. ومع أنهم كانوا أمة بيان وبلاغة، وجاء الخطاب الرباني على لغتهم التي يفهمونها، حتى يتحقق القصد من الرسالة، فإن البيان القرآني يفضل كل بيان؛ لأنه بيان معجز، أراد له الحق أن يكون كذلك :

(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا). (سورة الإسراء/ الآية:88).

وموضوع ترجمة معاني القرآن يرتبط ارتباط وثيقا ببيان هذا النص، ويتصل به اتصالا شديدا؛ لأن الغاية التي يجري إليها المترجم، ويقصد إليها إنها هي الإفهام والبيان. واعتبارا لدقة البيان الرباني، وبلوغه الدرجة التي لا تجارى، تفاوتت آراء اللغويين في مسألة النقل بين المنع والجواز [1]. والواقع أن وراء هذين الموقفين وعي متجذر بخصوصية البيان العربي، وإيمان قوي بتفرد لسان العرب بجملة من الخصائص، والفضائل لا توجد في غيره من الألسن : "فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجال ما أوتيته العرب خصيصا من الله، لما أرهصه في الرسول، وأراده من إقامة الدليل على نبوته بالكتاب، فجعله علمه" [2]. إن هذا التفرد البياني العربي بالذات هو ما سيستند عليه الجرجاني في القرن الخامس (ت 471هـ) حين صاغ نظرية النظم: – يقول عبد القاهر الجرجاني: " إن للعرب الفضل والمزية في حسن النظم والتأليف، وأن لهم في ذلك شأوا لا يبلغه الدخلاء في كلامهم والمولدون" [3].

ولن يعدم هذا الرأي من يناصره؛ فهذا برهان الدين الزركشي (ت 794هـ) يقرر وجوب قراءة القرآن بلغته العربية، والعلة:" نقص غيره من الألسن عن البيان الذى اختص به دون سائر الألسنة" [4].

والواقع أن هذا الموقف من بعض اللغويين القدماء فيه غلو كبير؛ فليس من الصواب في شيء أن نختزل البيان في لغة العرب دون غيرها من الأمم؛ فخاصية البيان مشتركة بين جميع الألسنة، وقد تفوق اللغة العربية غيرها من اللغات في سعة معجمها، واشتقاقها، وتراكيبها، وغنى معانيها.

ولما كانت ترجمة القرآن الكريم إلى الألسنة الأخرى فعلا متعذرا، قامت الحاجة إلى ترجمة معاني القرآن؛ وهذا عمل قامت به أجيال مختلفة من المسلمين وغير المسلمين من أهل الديانات والملل الأخرى. وقد يستعملون بدل ترجمة معاني القرآن الترجمة التفسيرية، وهي: " عبارة عن شرح الكلام، وبيان معناه بلغة أخرى بدون محافظة على

نظم الأصل وترتيبه، وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه ، وذلك بأن نفهم المعنى الذي يراد من الأصل، ثم نأتي له بتركيب من اللغة المترجم إليها، يؤديه وفق الغرض الذي سيق له) [5].

غير أن الترجمة التفسيرية لا تفي بجميع أغراض القرآن ومعانيه، فهي لا تستطيع أن تحيط بالتراكيب القرآنية؛ وغاية ما تقدمه بعض المفاهيم الكلية والعامة مما يتضمنه القرآن الكريم. ومع ذلك فإنها ضرورية للوفاء بعالمية القرآن وكونيته[6].

إن تعذر فعل ترجمة القرآن الكريم لا يعود فقط إلى خاصية البيان القرآني، وإنما يعود أيضا إلى مجموعة من العوامل؛ منها:

– تنوع مادة القرآن ومضامينه؛ فهو يشتمل على المحكم، والمتشابه، والناسخ، والمنسوخ، والمجمل، والمفصل، والمبهم، والمبين، والعام، والخاص، والمطلق، والمقيد، والظاهر، وما وراء الظاهر...إلخ.

– ومنها أيضا خاصية النص القرآني، باعتبار مصدره الإلهي؛ فهو نص تشريع، يوجه حياة الناس، ويؤثر في سلوكهم ؛ وقد انتبه الجاحظ (ت 255هـ) إلى صعوبة مطلب ترجمة النص الديني:" فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين وإخبار عن الله عز وجل بما يجوز عليه مما لا يجوز عليه، حتى يريد أن يتكلم على تصحيح المعاني في الطبائع....وحتى يعرف المثل والبديع والوحي والكناية....والمقصور والمبسوط والاختصار، وحتى يعرف أبنية الكلام، وعادات القوم، وأسباب تفاهمهم. والذي ذكرنا قليل من كثير. ومتى لم يعرف ذلك المترجم أخطا في تأويل كلام الدين، والخطأ في الدين أضر من الخطأ في الرياضة والصناعة والفلسفة والكيمياء" [7].

إن الإشكالات التي يطرحها النص الديني لا تكمن فقط في مسألة تفسيره، أو تأويله، بل تكمن أيضا في عملية ترجمته. والجامع بين التفسير والتأويل والترجمة أنها آليات لقراءة النصوص، تقدم فهما، وتنتج معنى، موازيا لمعنى النص المقروء. وهي جميعها محفوفة بكثير من المزالق.

– ومنها أيضا اختلاف البنى التركيبية للغات ؛ فكل لغة تتمتع بمجموعة من الخصائص التركيبية؛ وهذا يتعذر معه نقل ما في اللغات من فصاحة القول وبلاغته؛ لأن البلاغة تنشأ ضمن ما تنشأ منه من التراكيب النحوية. ومعلوم أن للتراكيب القرآنية خصائص اكتسبتها من دقة وضع هذه اللغة. إن معنى المعنى في القرآن الكريم هو محل الإشكال؛ وهو ما عبر عنه أبو إسحاق الشاطبي(ت 790 هـ) بالدلالة التابعة [8]؛ فهذا المستوى لا يمكن نقله إلى لغة أخرى مع الوفاء لكامل بيانه وبلاغته [9].

ومع ما يطرحه فعل ترجمة معاني القرآن من إشكالات معقدة، فإن عالمية رسالة الإسلام، وكونيتها تقتضي فعل النقل، سيما أمام الواقع الجديد الذي تعيشه الأمة؛ وهو واقع مليء بالتحديات على مختلف المستويات؛ إن فعل الترجمة بهذا المعنى ضرورة يقتضيها الواقع الجديد ربما أكثر من أي وقت مر ومضى. وقد ذهب الناقد (جاك دريدا) إلى أن الترجمة ليست حدثا طارئا، يعكس حالة سقم اعترت الحياة السوية، حياة التفاهم والانسجام، بل هي ضرورة حياتية، وضرورتها على حد تعبيره نابعة من محدودية وجودنا كأفراد [10].

ينصرف البحث في هذا الموضوع إلى تناول ملمح من ملامح بلاغة النص القرآني في مستواها النظمي: (التقديم والتأخير). ومعلوم أن النظم هو جوهر بيان القرآن الكريم وإعجازه؛ وفيه يحصل من تكامل العناصر الدلالية واللغوية، ما يجعل المعنى يرقى إلى مستوى من الدقة ؛ فيأتي التعبير عن المراد بصورة لا مطمع للخلق في الإتيان بمثلها، وإن بلغة عربية كلغته، فكيف إن أنت أردت أن تنقل ذلك إلى لغة أخرى.

يروم المبحث الأول من هذا العرض العلمي الكشف عن القيمة البلاغية لأسلوب التقديم والتأخير، وبيان منزلته من البيان، ودقة مسالكه، وخطورة دلالاته، وبعض جهود العلماء في مقاربته من نحاة وبلاغيين ومفسرين وعلماء القرآن، لنجعل ذلك كله توطئة للمبحث الخاص بترجمة بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم. وقد اخترنا أن يكون الإيجاز سبيلنا ومنزعنا في هذه المقاربة.

المبحث الأول: التقديم والتأخير: التأصيل النظري:

إن مبحث التقديم والتأخير من المباحث الجليلة المتعلقة بالنظم؛ فهو تركيب يكشف عن غنى اللغة العربية، وقوتها، وسعة معانيها. ويزخر التراث النحوي والبلاغي والتفسيري ببحوث نظرية وتطبيقية حول هذا الأسلوب البياني في القرآن الكريم، وأشعار العرب.

1- التقديم والتأخير في رحاب الدراسات النحوية والبلاغية والتفسيرية:

أ/ في رحاب الدراسات النحوية:

قد يكون سيبويه بشر بن قنبر (ت 180هـ) من أوائل من طرق باب (التقديم والتأخير)، وأدرك بعض أسراره. ومع أن هذا المبحث يظهر في مواضع متفرقة من (الكتاب) فإننا نسجل أن تناوله لهذا التركيب تناول يتقاطع فيه النحو: (ضبط الوجوه الجائزة لتقديم المقدم) والبلاغة: (التنبيه على بعض أسرار التقديم). و قد جاء

تحت الفصل الذي يحمل عنوان: (باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعول) :" كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم"[11].

ونظر أبو سعيد السيرافي (ت377هـ)–من شراح سيبويه– بدوره في هذا التركيب من خلال تأصيلاته النظرية، ووقف على ضرب من التقديم، يكون بعكس الإعراب، فيجعل الفاعل مفعولا، والمفعول فاعلا. وخلاصة ما في هذا الضرب من التقديم التبادل الظاهري للمواقع والوظائف [12].

وسيخطو البحث في هذا التركيب خطوات كبيرة مع ابن جني (ت 392هـ). وبحث أبو الفتح هذا الأسلوب في فصل، يندرج تحت باب من أبواب مصنفه: (الخصائص)، عنونه بـ (شجاعة العربية). وتناول هذا المبحث في موضع آخر من نفس الكتاب، تحت عنوان: (باب نقض المراتب). وعنده أن التقديم على ضربين:

+ الأول: ما يقبله القياس.

+ الثاني: ما يسهله الاضطرار؛ أي ما يدخل تحت باب الضرورة الشعرية [13].

إن بذور هذا المبحث كانت نحوية بامتياز؛ فقد نشأ هذا الأسلوب عن عدم الالتزام بالأصول، وتوليد الفروع. و تكفل النحاة بتحديد الأصول في العربية، ووضع القواعد التي تضبط اللغة؛ ويظهر من خلال تلك القواعد أن التقديم والتأخير ليسا متاحين على إطلاق؛ بمعنى أن التصرف في الكلام تقديما وتأخيرا لا يأتي كيفما اتفق؛ بل لقد ضبط النحاة مواضع التقديم والتأخير ضبطا محكما، على اختلاف بينهم في القول؛ وهو ضبط يتراوح بين حالات الجواز، والوجوب، والمنع؛ كما دققوا النظر في طبيعة المقدم والمؤخر على اختلاف صوره:(المسند/ المسند إليه/ متعلقات الفعل..).

ب/ في رحاب الدراسات البلاغية:

ربما يكون عبد القاهر الجرجاني أول بلاغي نبه إلى أسرار ونكت التقديم والتأخير، وأطال الكلام في أغراضه. وقد خصص له فصلا في (دلائل الإعجاز)، افتتحه بتأكيد أهميته، والتنويه بقيمته البلاغية. يقول: "هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة. ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك، ولطف عندك، أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ من مكان إلى مكان" [14].

ولم يقف الجرجاني عند حدود الغرض الذي حدده سيبويه للتقديم والتأخير؛ نقصد هنا: العناية والاهتمام، بل عمق البحث في أغراض أخرى، و خطأ التقسيم المعتمد في التقديم والتأخير: (المفيد/ غير المفيد)، وتعليل ذلك بالعناية أو التوسعة[15].

ويؤاخذ الجرجاني غيره من البلاغيين عن انصرافهم عن التعمق في بحث أغراض التقديم والتأخير، وتحامل على من اعتبر البحث في هذا الباب ضربا من التكلف [16].

ويعتبر تقسيم الجرجاني للتقديم والتأخير، اعتمادا على معاني النحو الوظيفية، أرقى تقسيم يروم الإحاطة بأسرار هذا التركيب؛ فهو عنده على ضربين:

+ الأول: التقديم المعنوي؛ وهو تقديم على نية التأخير: " وذلك في كل شيء أقررته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ، والمفعول إذا قدمته على الفاعل" [17].

إن المقدم في هذا الضرب الأول يحتفظ بوظيفته النحوية التي كانت له قبل التقديم.

+ الثاني: التقديم اللفظي: وهو تقديم لا على نية التأخير: " على أن تنقل الشيء من حكم إلى حكم، وتجعل له بابا غير بابه، وإعرابا غير إعرابه؛ وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كل منهما أن يكون مبتدأ، ويكون الآخر خبرا له، فتقدم تارة هذا على ذاك، وأخرى ذاك على هذا" [18].إن المقدم في هذا الضرب الثاني يفقد وظيفته النحوية التي كانت له قبل التقديم.

ومع أبي يعقوب السكاكي (ت 626هـ) ستبرز قضايا هذا الأسلوب منظمة بدقة، انسجاما مع مشروعه البلاغي، والذي هو في الجوهر محاولة لجمع علوم الأدب: (صياغة نظرية في علم الأدب) (19). عرض السكاكي لمبحث التقديم والتأخير ضمن مباحث علم المعاني؛ وهو أحد علوم البلاغة الثلاثة في صورتها النهائية عند البلاغيين المتأخرين. وقد بحثه في أبواب مختلفة من أبواب هذا العلم: (باب المسند إليه/باب المسند/باب متعلقات الفعل)؛ فالتقديم والتأخير حال يعرض لهذه الأقطاب من الكلام. و قد أخذ السكاكي برأي سيبويه في الموضوع، وقسم العناية إلى:

- ما يتصل بالتركيب،

- ما يتصل بشدة الاهتمام وتزايده.

ثم ذكر أغراضا أخرى تتصل بهذا المبحث، ومنها: أن يكون التقديم هو الأصل، ولا مقتضى للعدول عنه، ومنها أيضا: التخصيص، والتعريض، والتشويق، إلخ [20].

وأفرد ضياء الدين ابن الأثير (ت637هـ) ركنا خاصا للتقديم والتأخير في كتابه: (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر)، افتتحه بقوله: « وهذا باب طويل عريض، يشتمل على أسرار دقيقة، منها ما استخرجته أنا، ومنها ما وجدته في أقوال علماء البيان" [21].تناول ابن الأثير في هذا الركن أقسام التقديم والتأخير، وأغراضه، وهو يسوق أثناء ذلك كله شواهد كثيرة من القرآن الكريم، والشعر العربي القديم؛ وكان صاحب منهج بديع في تناول أغراض هذا الأسلوب، وكشف أسرار بلاغته.

ج- في رحاب علوم القرآن :

أخصب علماء القرآن والمفسرون مبحث التقديم والتأخير ببحوث نظرية وافرة، هذا فضلا عن جهود في التطبيق، ترصد هذا التركيب، من حيث الأغراض والأسرار التي يفيدها. وخير من يمثل هذه الجهود سليمان بن عبد القوي الطوفي (ت 710هـ) في كتابه: (الإكسير في علم التفسير)؛ فقد كتب فيه فصلا تحت عنوان: (شجاعة العربية)، عرض فيه للتقديم والتأخير؛ ومعالجة الطوفي تجمع بين النظري والتطبيقي؛ غير أن عنايته هنا بالجانب النظري أكبر؛ فقد عرف بالتقديم والتأخير، وذكر صوره، وأقسامه، وأضربه في الخبر والاستفهام. وأغراضه البلاغية [22].

وعرض ابن قيم الجوزية (ت 751هـ) في كتابه: (الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان) أيضا لهذا الأسلوب؛ وعنده أن التقديم والتأخير دليل على تمكن العرب في الفصاحة، وتصرفهم في الكلام، وقوة ملكتهم فيه. كما بسط الكلام في إشكال التقديم والتأخير بين الحقيقة والمجاز [23].

وكتب بدر الدين الزركشي (ت 794هـ) في كتابه: (البرهان في علوم القرآن) فصلا حول أسباب التقديم والتأخير، وفصلا آخر لأنواعه، ورصد كثيرا من الأغراض البلاغية التي يفيدها هذا التركيب في القرآن الكريم [24] .

وتناول هذا المبحث أيضا جلال الدين السيوطي (ت 911هـ) في كتابيه: (معترك الأقران) و(الإتقان في علوم القرآن)،فذكر أسرار التقديم والتأخير، وأسبابه، وحصرها في عشرة وجوه [25].

ويعثر الدارس على بحوث نظرية وتطبيقية وافرة أيضا حول هذا الأسلوب في كتب التفسير، سيما منها ذات النزوع اللغوي والبلاغي، وخير من يمثلها:(الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)لجار الله الزمخشري (ت 538هـ)، و(البحر المحيط) لأبي حيان الأندلسي الغرناطي (ت 745هـ)، و(روح المعاني) للألوسي (ت 1270هـ)، و (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور (ت 1973م).

2- التقديم والتأخير: دقة المبحث وخطورته:

لم يخطئ ابن جني حين عد التقديم والتأخير دليلا على شجاعة العربية؛ فهذا الأسلوب عدول عن الترتيب الأصلي الذي تقرر مع النحاة؛ وهو حاجة من حاجات النفس؛ فاللفظ تبع للمعنى في النظم، والكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس، كما قرر ذلك عبد القاهر الجرجاني [26] .

والترتيب في النحو تحكمه أصول وقواعد؛ منها ما هو محفوظ لا يمكن مخالفته، ومنها ما هو غير محفوظ، يسمح بالخروج عنه لتحقيق أغراض، لا يبرزها الترتيب العادي لمكونات الكلام. وقد ذهب (**برجشتراسر**) إلى أن اللغة العربية ربما تكون أكثر اللغات السامية ميلا إلى التقييد [27].والرتبة:" قرينة لفظية، وعلاقة بين جزأين مرتبين من أجزاء السياق، يدل موقع كل منهما من الآخر على معناه" [28].

و يتحدث النحاة عن ضربين من الرتب: رتب غير محفوظة: (ما يسمح بالتصرف فيه من الأبواب النحوية) : (رتبة المبتدأ مع الخبر، ...)، ورتب محفوظة: (ما يمنع التصرف فيه): (الفعل مع الفاعل ونائبه، الصلة مع الموصول، الصفة مع الموصوف، الجواب مع المجاب شرطا كان أم قسما، أو غيرهما: (خلاف بين البصريين والكوفيين في تقديم جواب الشرط)، ما له الحق في الصدارة؛ نحو الأسماء والحروف التي لها الصدر، ولا يقدم عليها شيء مما دخلت عليه؛ نحو أدوات الاستفهام، والشرط، ولام الابتداء...الخ). وقد فصل النحاة الكلام في هذه المواضع، وهي كما أسلفت كثيرة [29].

والأصل في هذا الباب-كما يذكر النحاة- أن يتقدم الفعل، ثم يأتي الفاعل، والمفعول به، ثم المفعول المطلق، والمفعول له، فظرف الزمان، فظرف المكان، فالمفعول معه [30].

إن التقديم والتأخير ينهض على التصرف في عموم الرتب غير المحفوظة بالنقل:(نقصد هنا النقل من موضع إلى آخر)، لتحقيق أغراض بلاغية، وأيضا في بعض الرتب المحفوظة، بإعادة توزيع الوظائف النحوية، والنظر فيما وراء ذلك من دلالات وأسرار: " فهو أسلوب عدولي عن أصل الرتبة، ومؤشر أسلوبي، إنما يكون لغايات تتصل

بالمعنى " (31) وهو خاصية مشتركة بين كل اللغات؛ إذ لا توجد لغة واحدة ترتيب الكلمات فيها جامد لا يتحرك (32).

إن دقة أسلوب التقديم والتأخير وخطورته يمكن أن نلمسها بجلاء في القرآن الكريم؛ ورد في الآية الأولى من سورة الفاتحة: (الحمد لله رب العالمين)، وورد في الآية السادسة والثلاثين من سورة الجاثية: (فلله الحمد). و ورد في الآية التاسعة عشر من سورة الانفطار: (والأمر يومئذ لله)، وجاء في الآية الرابعة من سورة الروم: (لله الأمر)؛ وورد في الآية الثامنة والخمسين بعد المائتين من سورة البقرة قوله تعالى:

(**إذ قال إبراهيم رب الذي يحي ويميت قال أنا أحي وأميت**)؛ فأنت ترى أن إبراهيم عليه السلام لم يقل: (يحي ويميت ربي)؛ والفرق كبير بين التركيبين ؛ وقوله: (ربي الذي يحي ويميت) يفيد أنه لا محيي ولا مميت إلا الله ؛ ولو قيل: (يحي ويميت ربي) لكان المعنى: إن الله قادر على الإحياء والإماتة، ولا مانع أن يقدر عليهما غيره، ولذلك قال ذلك المجادل: (أنا أحيي وأميت)؛ أي أنا لا غيري؛ لأن النزاع ليس حول قدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة، وإنما النزاع حول تفرده تعالى بذلك (33).

إن اختلاف النظم إذن ليس فعلا اعتباطيا، وإنما يتحكم فيه المعنى الذي يراد تبليغه؛ واختلاف النظم يترتب عنه اختلاف المعنى، وكل عدول عن نظم إلى نظم آخر لا يمكن إلا أن يكون مفيدا؛ ذلك أنه: " من البعيد أن يكون في جملة النظم ما يدل تارة، ولا يدل تارة أخرى...فأما أن يجعله شريجين: (يقصد: قسمين متساويين) فيزعم أنه للفائدة في بعضها، وللتصرف في اللفظ في غير معنى في بعض، فمما ينبغي أن يرغب عن القول به) (34). وبهذا المنطق، يعرض الجرجاني لأسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم، وأشعار العرب بمنهجه الفريد في التحليل، فيستخلص الأسرار، ويجلي النكت، ويبرز اللطائف .

إن وجوه النظم كثيرة :" فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة " (35) ؛ وبها تحصل المزية في الكلام: "وإذ قد عرفت ذلك : (وجوه النظم) فاعمد إلى ما تواصفوه بالحسن، وتشاهدوا له بالفضل، ثم جعلوه كذلك من أجل النظم خصوصا دون غيره، مما يستحسن له الشعر أو غير الشعر، من معنى لطيف، أو حكمة أو أدب، أو استعارة أو تجنيس، أو غير ذلك مما لا يدخل في النظم، وتأمله، فإذا رأيتك قد ارتحت، واهتززت، واستحسنت، فانظر إلى حركات الأريحية مما كانت، وعند ماذا ظهرت" (36) . والجواب بطبيعة الحال أنها ترجع إلى الإجراءات النظمية التي ذكرها (37).

إن مأتى الإعجاز في القرآن الكريم في النظم، في أحكامه، ووجوهه المختلفة. يقول الخطابي (388هـ) :" واعلم أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، مضمنا أصح المعاني" [38].

إن بلاغة التقديم والتأخير تقع في صميم نظرية النظم، باعتبارها وجه الإعجاز في القرآن؛ ويحضر هذا الأسلوب بصوره و وجوهه المتعددة، وأسراره الدقيقة بكثرة في القرآن الكريم. إن ترجمة بلاغة التقديم والتأخير بهذا المعنى هي محاولة لنقل ملمح من ملامح النظم القرآني المعجز.

إن مثل هذا التأطير النظري لمبحث التقديم والتأخير ضرورة علمية ينبغي أن تستند إليها كل محاولة ترجمة لهذا الأسلوب، تبتغي تأسيس نموذج يحتذى في نقل بلاغة هذا التركيب في القرآن الكريم؛ إننا إزاء أسلوب عدولي، هو شاهد على شجاعة العربية، تأصلت قواعده وأحكامه مع النحاة، وتقررت معاني معانيه مع علماء البلاغة.

المبحث الثاني ترجمة بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم:

دراسة تطبيقية:

1- حول متن الدراسة:

يشتغل هذا البحث على نقل بلاغة أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية؛ وهو يحدد متنه في ترجمتين اثنتين لمعاني القرآن الكريم:

أنجز الأولى محمد حميد الله (ولادته 1908م/ وفاته 2002م)/. وهي من أكثر الترجمات لمعاني القرآن رواجا باللغة الفرنسية؛ ولا أدل على ذلك من كون طبعاتها وصلت حدود العشرين. صدرت الطبعة الأولى من ترجمته سنة 1980. وحميد الله من الهنود المسلمين، وله إسهامات علمية كثيرة في مجال الشريعة والقانون والفكر وتحقيق التراث. وقد ولج باب الترجمة من مدخل إلمامه بكثير من اللغات من جهة: (اثنان وعشرون لغة)، ومن مدخل معرفته بلغة القرآن من جهة أخرى؛ فقد صدر له سنة 1364هـ كتاب: (نشر القرآن بكل لسان). واشتغل محاضرا بالمركز الوطني للبحوث العلمية بباريس أكثر من عشرين سنة، وحاضر في كثير من الجامعات ومراكز البحث بالعالم[39].

كتب محمد حميد الله مقدمة لترجمته لمعاني القرآن، بسط فيها القول حول كثير من الموضوعات ذات الصلة بالقرآن الكريم: (مصدر القرآن- مفهوم الوحي- القرآن والحديث- أسلوب القرآن والتوراة والإنجيل- مضمون

القرآن- المصادر الإسرائيلية- المفهوم القرآني للحياة- المرأة في القرآن- الرق- سيرة رسول الله ص في إطار معطيات القرآن الكريم- تاريخ تدوين القرآن- ترتيب الآيات والسور- الكتابة- الرسم القرآني- النحو العربي- رواية النص القرآني وحفظه- مشكل التغييرات- مسألة النسخ في القرآن- تلاوة القرآن- القراءة بدون انقطاع- تاريخ ترجمة القرآن).

وأنجز الترجمة الثانية الباحث أحمد دروس:(من الدارسين المغاربة المحدثين). صدرت طبعتها الأولى سنة 2003 عن مطبعة دار المعارف الجديدة بالرباط. وصدرت طبعتها الثانية سنة 2009، تحت عنوان ترجمة معاني القرآن للفرانكفونيين، بدعم من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. وتكشف المقدمة عن اهتمام مبكر وخاص من المترجم بالقرآن الكريم حفظا وتدبرا. وألحق المترجم بالمقدمة تنبيها ذكر فيه بإيجاز خصائص ترجمته، ومنها: (40)

+ أنها ليست عملا أكاديميا.

+ وليست عملا بحثيا بمعنى البحث العلمي الدقيق.

+ وليس من مقاصدها أن تحاكم غيرها من الترجمات المتداولة لمعاني القرآن.

2- ترجمة بلاغة التقديم والتأخير: دراسة تطبيقية:

سنعمد في هذا المستوى من الدراسة إلى فحص نماذج من صور التقديم والتأخير في ترجمتي معاني القرآن لحميد الله وأحمد دروس؛ إن الغاية من هذا الفحص كما أسلفت في فاتحة هذا العرض العلمي، ليست هي التخطئة، أو الحكم بالقصور، أو العجز، أو ما شاكل ذلك، وإنما الغاية تتبع جهود المترجمين في نقل بلاغة أسلوب التقديم والتأخير، والتنبيه على بعض مزالق النقل إلى اللغة الهدف، وأسبابها، والانتفاع بذلك كله من أجل بناء نموذج ترجمي يمكن اعتماده في نقل بلاغة القرآن، يؤمن المعنى، ويحد من ضياع البيان القرآني. وليس بوسعنا في مثل هذا العرض أن تتبع الظاهرة في جميع وجوهها، وحسبنا أن نمثل بنماذج تفي بالقصد.

أ/ – تقديم المسند إليه: (المبتدأ) وهو معتمد على همزة الاستفهام، والفعل فعل ماض:

– ومنه في القرآن الكريم قوله تعالى في الآية الثانية والستين من سورة " الأنبياء":

(أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم).

– ورد في ترجمة حميد الله: [41]

Puis : «est-ce toi qui a fait cela à nos dieux, Abraham?»

– وورد في ترجمة أحمد دروس: [42]

N'est-ce pas toi, Abraham, qui a profané ainsi nos dieux ?

إن نظم الآية الكريمة يفيد دلالة خاصة؛ فنحن هنا أمام مسند إليه مقدم في الكلام: (المبتدأ/ أنت)، معتمد على استفهام التقرير، والفعل فعل ماض:" فإذا قلت: (أأنت فعلت ذلك) كان غرضك أن تقرره بأنه الفاعل.....لا شبهة في أنهم لم يقولوا ذلك له عليه السلام، وهم يريدون أن يقر لهم بأن كسر الأصنام قد كان، ولكن أن يقر بأنه منه كان، وكيف؟ وقد أشاروا إلى الفعل قي قولهم: (أأنت فعلت هذا؟) وقال هو عليه السلام في الجواب:(بل فعله كبيرهم هذا). ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب: (فعلت أو لم أفعل)...واعلم أن الهمزة فيما ذكرنا تقرير بفعل قد كان، وإنكار له لم كان، وتوبيخ لفاعله عليه" [43].وجاء جواب إبراهيم عليه السلام على قدر سؤالهم: (بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون). (الآية: 63).

يقول الزمخشري منبها إلى ما في هذا الأسلوب من روعة البيان : " هذا من معاريض الكلام؛ ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني. والقول فيه أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه، وإثباته لها على أسلوب تعريضي، يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم" [44].

إن تقديم المسند إليه، المعتمد على الاستفهام: (الهمزة)، والفعل فعل ماض، يفيد التقرير بفعل قد حصل، والإنكار له لما حصل، وتوبيخ فاعله. وهذا المعنى البلاغي مشروط بهذه البنية من النظم، فإذا اختلت اختل المعنى البلاغي.

وفي ترجمة حميد الله لمعنى الآية:

Puis : « est-ce toi qui a fait cela à nos dieux, Abraham? »

تثير ترجمة معنى الآية إشكالا يخص الاستفهام؛ صحيح أن نظم نص ترجمة حميد الله فيه حس ينبئ عن وعي بخصوصية التركيب القرآني؛ فقد قدم أداة الاستفهام: EST-CE، ثم أردفها بالمسند إليه: TOI. غير أن

هذه الدلالة التي ذكرناها: (التقرير بفعل قد كان والإنكار له والتوبيخ عليه) يخص الاستفهام بالهمزة دون غيرها من الأدوات.

أما ترجمة أحمد دروس، ففيها عدول عن بنية النظم القرآني الأصلية؛ فالمترجم اعتمد أسلوب النفي والاستفهام لنقل المعنى القرآني:

N est- ce pas toi Abraham, qui a profané ainsi nos dieux ?

ألست أنت يا إبراهيم من دنس هكذا آلهتنا؟

وهذا التركيب لا يؤدي قطعا الدلالة والمعنى الذي تقصد إليه الآية الكريمة؛ ثم إن المترجم هنا استعمل فعل (profaner) مقابلا للفعل: (فعلت). ودلالة هذا الفعل هي الترجيس، والتدنيس؛ ويكون غالبا في مجال المقدسات؛ والذي تشير إليه الآية الكريمة بالفعل (فعلت) هو الكسر والتحطيم، حتى صارت فتاتا، كما يذكر المفسرون[45].

ب/ – تقديم المسند إليه (المبتدأ) المعتمد على النفي:

– ومنه في القرآن الكريم قوله تعالى في الآية السابعة والستين بعد المائة من سورة " البقرة":

(وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله

أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار).

– ورد في ترجمة حميد الله: [46]

Et diront les suiveurs « s'il était pour nous un retour alors nous les désavouerions comme ils nous ont désavoués ! » ainsi dieu leur montrera leurs actions, sujet de leurs regrets. Et ce n' est pas eux qui sortiront du feu.

– وورد في ترجمة أحمد دروس: [47]

Les suppôts se mettront alors à gémir : « Ah ! si nous pouvions retourner su terre ! Nous aurions à les renier à la façon dont ils viennent de nous renier en ce moment » C'est ainsi qu'Allah leur fera voir leur turpitudes tout en attisant leurs regrets. La fournaise sera à jamais leur demeure .

وبالنظر إلى نظم الآية الكريمة: (وما هم بخارجين منها) فإن الدلالة التركيبية تقتضي غرض التخصيص؛ ومعناه نفي الفعل عن المسند إليه وإثباته لغيره. وشروط هذه الدلالة متوفرة؛ ومنها أن يتقدم المسند إليه أداة نفي، وأن يكون الخبر فعلا: (مذهب الجمهور)، أو ما في معنى الفعل من المشتقات: (مذهب جار الله الزمخشري).

والمتتبع لقوله تعالى: (وما هم بخارجين منها) في بطون مصادر التفسير سيقف على خلاف كبير على مستوى تأويل الآية؛ فالمفسرون من أهل السنة يذهبون إلى أن الدلالة هنا هي دلالة التخصيص؛ ومقتضاها أن الكفار لن يخرجوا من النار، وغيرهم ممن تابوا وأصلحوا سيخرجون منها. غير أن مفسرا معتزليا كالزمخشري مثلا سيجد نفسه ملزما بممارسة التوجيه البلاغي حتى تستقيم دلالة الآية مع معتقده؛ ومعلوم أن من أصول الاعتزال أصل المنزلة بين المنزلتين؛ وعندهم أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار. ويعتبر الزمخشري أن تقديم الضمير (هم) في الآية الكريمة يفيد التأكيد والتقوية فيما أسند إلى الكفار، وهو عدم الخروج من النار، وليس على سبيل الاختصاص؛ لأن الخلود في النار لا يختص به الكفار وحدهم، وإنما هو وصف وجزاء للكفار والعصاة من المؤمنين، الذين ماتوا على غير توبة؛ وهو هنا يتمسك بما يقتضيه أصل المذهب من وعيد العصاة وخلودهم في النار، والله لا يخلف وعده. وهذا على خلاف ما عليه الأمر عند أهل السنة: " لا يخلد في النار إلا الكافر، أما العاصي، وإن أصر على الكبائر فتوحيده يخرجه منه" [48].

يقول الزمخشري: " (وما هم بخارجين منها): (هم) : بمنزلة :

هم يفرشون اللبد كل طمرة وأجرد سباح يبذ المغاليا

في دلالته على قوة أمرهم فيما أسند إليهم، لا على الاختصاص" [49].

إن هذا التوجيه الذي مارسه الزمخشري هنا مناف لما أصله البلاغيون من إفادة تقديم المسند إليه المعتمد على النفي لدلالة التخصيص؛ ودلالة تقوية الحكم التي أخذ بها، إنما هي من مقتضيات العقيدة. ولم يخف على بهاء الدين السبكي (ت 773هـ) هذا التوجيه من الزمخشري لدلالة الاختصاص في الآية: " وهذه دسيسة اعتزال؛ لأنه لو جعلها هنا للاختصاص، لزمه تخصيص عدم خروج الكفار، فيلزم خروج أصحاب الكبائر من المسلمين كمذهب أهل السنة. والزمخشري أكثر الناس أخذا بالاختصاص في مثل هذا وغيره من قواعد البيانيين، فإذا عارضه الاعتزال، فزع من قواعدهم إليه"[50].

وفي ترجمة حميد الله:

Et ce n’est pas eux qui sortiront du feu

وفي ترجمة أحمد دروس:

La fournaise sera à jamais leur demeure

نسجل بداية الاختلاف التام بين نظمي الترجمتين؛ فترجمة حميد الله حاولت قدر الإمكان نقل المعنى القرآني من جهة، والوفاء لنظمه من جهة ثانية: وبيان ترجمته كالتالي:

وليسوا هم من سيخرجون من النار

ومكونات نظم ترجمته الفرنسية كالتالي: النفي: (CE N’EST PAS/ NEGATION) + المسند إليه: / EUX (SUJET) +الخبر: (VERBE/ SORTIRONT)

غير أن ترجمة الآية الكريمة تثير إشكالا آخر يتعلق الأمر بالخبر: (خبر ما النافية التميمية): (بخارجين)؛ زيدت فيها الباء على القياس، حملا ل (ما) على (ليس)، كما تقرر في صناعة النحو. وشرط إفادة التخصيص – كما أسلفت – أن يكون الخبر فعلا، أو ما في معناه، غير أن دلالة الخبر في الآية الكريمة يفيد الثبوت؛ لأنه اسم، ولو كان فعلا لأفاد الحدوث والتجدد.

وأنت تجد في ترجمة حميد الله الخبر بصيغة الفعل:

(VERBE/ SORTIRONT)، وليس بصيغة اسم الفاعل؛ إن الأخذ بهذا التوجيه يقتضي أن تكون الترجمة كالتالي:

Et ce n’est pas eux les sortants du feu

أما الباء التي حدثتك عنها فيما مضى في قوله تعالى: (بخارجين) فلن تتحملها اللغة الهدف، ولن تستطيع أن تنقلها، ولو بتكلف.

وفي ترجمة أحمد دروس لمعنى الآية الكريمة:

La fournaise sera à jamais leur demeure

جهنم ستكون إلى الأبد دارهم

وهذه ترجمة فيها نقل سطحي للمعنى العام للآية: (الخلود في النار)؛ ولكنها تشهد على عدول تام عن النظم القرآني، وما يرتبط به من معان، وأسرار، كشفنا عن بعضها؛ عدل أحمد دروس أولا عن معنى العطف أو الحال الذي تحمله الواو: (وما هم) – على خلاف بين المعربين- ، وعدل ثانيا عن معنى النفي، الذي يفيده الناسخ الحرفي:(ما)؛ وقدم في ترجمته معمول الخبر: الجار والمجرور (من النار)، بعد إسقاط حرف الجر: (من)؛ لأن اللغة الهدف لا تتحمله. وكانت الحصيلة أن ضاع المعنى البياني للآية الكريمة، ممثلا في غرض التخصيص.

د/تقديم ضمير القصة:

– ومنه قوله تعالى في الآية السابعة عشرة بعد المائة من سورة "المؤمنون":

(إنه لا يفلح الكافرون).

ينهض نظم الآية الكريمة على الناسخ الحرفي: (إن) المشددة؛ ودلالته –كما تقرر ذلك عند النحاة- إثبات النسبة، وتقريرها، ونفي الشك، والإنكار عنها. وجاء الناسخ متلوا باسمه، وهو ضمير الشأن؛ ويسمونه أيضا ضمير الأمر، أو ضمير القصة. ومجيء هذا الضمير هنا يزيد الكلام قوة: " وكذلك السبيل أبدا في كل كلام كان فيه ضمير قصة؛ فقوله تعالى: (إنه لا يفلح الكافرون) ، يفيد من القوة في نفي الفلاح عن الكافرين، ما لوقيل: (إن الكافرين لا يفلحون) لم يستفد ذلك.ولم يكن ذلك كذلك إلا لأنك تعلمه إياه من بعد تقدمة وتنبيه، أنت به في حكم من بدأ، وأعاد، ووطد، ثم بنى، ولوح، ثم صرح. ولا يخفى مكان المزية فيما طريقه هذا الطريق" [51].

- جاء في ترجمة حميد الله: [52]

Non, les mécréants ne seront pas les gagnants.

اعتمد حميدا لله صيغة النفي مرتين: (Non / Ne seront pas) لنقل معنى نفي الفلاح عن الكافرين. والواقع أن روح المعنى القرآني أفلحت الترجمة في نقله هنا؛ ولكن النظم قصر عن ذلك؛ لأن اللغة الفرنسية لا تسعف في نقل هذا المكون من مكونات النظم: (إنه). واستعمال حميد الله للنفي مرتين يكشف عن وعي بالغرض البلاغي للآية: (فهو يعلم بالنفي أولا/ تعويضا عن معنى ضمير الشأن، ثم يعيد تأكيده ثانيا، وهذا أقوى من حيث الدلالة).

ثم إن هذا الناسخ له من الأسرار العجيبة الشيء الكثير، بعضها يفصح عنها استعماله في نظم هذه الآية؛ فهي يربط بها بين أجزاء الكلام، ولو سقطت: " لم تر الكلام يلتئم ، ولرأيت الجملة الثانية لا تتصل بالأولى، ولا تكون منها بسبيل، حتى تجيء بالفاء" [53]. وانظر قوله تعالى: (ومن يدع مع الله إله آخر لا برهان له به، فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون) (سورة المؤمنون/الآية: 117). ولو حاولت أن تأتي بدلا عن (إنه) بكلمة أو حرف يؤدي نفس الوظيفة، لما وجدت إلى ذلك سبيلا؛ وحتى الفاء لا تفي بهذا الغرض، فاعلم ذلك

– وفي ترجمة أحمد دروس:[54]

Les mécréants ne peuvent espérer un quelconque salut.

الكافرون لا يستطيعون أن يتمنوا أي خلاص.

إن المترجم هنا لم يتقيد بالتركيب القرآني، واستعمل دلالة النفي: (ne peuvent) للتعبير عن المعنى العام الذي تشير إليه الآية الكريمة ؛ غير أن ترجمته جاءت أرحب وأوسع من حيث المعنى.

ث/ – تقديم الخبر شبه الجملة والمبتدأ نكرة محضة :

– ومنه قوله تعالى في الآية السابعة من سورة " البقرة" :

(ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم).

– وورد في ترجمة حميد الله: [55]

Dieu a scellé leurs cœurs et leurs oreilles. Et sur leurs yeux, un bandeau ; et pour eux, un grand châtiment.

– وورد في ترجمة أحمد دروس: [56]

Dieu a scellé à jamais leur cœur et bouché leurs oreilles et un voile épais leur couvre la vue ; un châtiment terrible les attend.

إن نظم قوله تعالى: (وعلى أبصارهم غشاوة) فيه تقدم الخبر الجار والمجرور: (على أبصارهم) على المبتدأ: (غشاوة). والأصل –كما تقرر في صناعة النحو– أن المبتدأ لا يصح أن يقع نكرة؛ لأن الحكم على المجهول لا يفيد. غير أن النكرة، إذا أفادت جاز الابتداء بها. ووجوه إفادة النكرة كثيرة منها أن يتقدم الخبر الظرف أو الجار

والمجرور. وهنا تنتهي صناعة النحو، لتبدأ صناعة البيان. إن تقديم المسند / الخبر في الآية هو لغرض التنبيه منذ الوهلة الأولى على أنه خبر وليس صفة؛ لأن الخبر يلتبس بالصفة أحيانا، وإنما يفرق بينهما باعتبارات معنوية. وها هنا غرض آخر، يرتبط بتنكير المسند إليه المؤخر: (غشاوة)؛ والغرض البياني من التنكير هنا هو القصد إلى النوعية؛ والمراد نوع غريب من الأغطية، وهو غطاء التعامي عن آيات الله تعالى. ومعلوم أن النكرة: " يتقاذف الذهن من مطالعها إلى مغاربها....فيحصل في النفس لها فخامة، وتكتسي منها وسامة. وهذا فيما ليس لمفرده مقدار مخصوص، بخلاف المعرفة، فإنه لواحد بعينه، يثبت الذهن عنده، ويسكن إليه"[57].

وإذا تجاوزنا المستوى التركيبي إلى المستوى الدلالي، فإن لفظة (الختم) في هذه الآية تثير إشكالا عند المفسرين. والزمخشري يحمل معناها على المجاز: "فإن قلت ما معنى الختم على القلوب والأسماع، وتغشية الأبصار؟ قلت: لا ختم ولا تغشية ثم على الحقيقة، وإنما هو من باب المجاز، ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه: وهما الاستعارة والتمثيل" [58].

إن هذا التوجيه الذي يمارسه الزمخشري هنا إنما هو من مقتضيات العقيدة؛ لأن المعتزلة يرون أن الله لا يفعل القبيح من الأفعال، لعلمه بقبحها، وعلمه بغناه عنها. ويبقى القصد إذن من الختم إلى صفة القلوب، بأنها كالمختوم عليها. وأما إسناد الختم إلى الله عز وجل، فلينبه على أن هذه الصفة في فرط تمكنها، وثبات قدمها كالشيء الخلقي غير العرضي [59].

فهل انتبه المترجمان لكل هذه الإشكالات التي تثيرها الآية الكريمة من زوايا التركيب والدلالة؟

إن ترجمة حميد الله:

Dieu a scellé leurs cœurs et leurs oreilles. Et sur leurs yeux, un bandeau ; et pour eux, un grand châtiment

تكشف عن حرص شديد للالتصاق بالمعنى القرآني، مع محاولة نقل بيانه بالحد الأدنى من الضياع. وإذا كانت الآية الكريمة قد حددت موضوع الختم: (القلوب/ السمع)، فإن المترجم غير من هذا الذي يشمله الختم؛ وهو عنده: (Cœurs / Oreilles)؛ والآية الكريمة لا تتحدث عن الآذان، وإنما تتحدث عن السمع: (l'ouie) الذي يحصل بسبب الأذنين.

وحاول حميد الله الاحتفاظ على النظم القرآني من حيث تقديم الخبر شبه الجملة: (Et sur leurs yeux, un bandeau)، وعرف المبتدأ المؤخر: (un bandeau)؛ لأن اللغة الهدف لا تسمح بتنكيره هنا. وقد سبق أن حدثناك عن بلاغة التنكير، فيما مضى.

أما ترجمة أحمد دروس:

Dieu a scellé à jamais leur cœur et bouché leurs oreilles et un voile épais leur couvre la vue ; un châtiment terrible les attend.

فجاءت مثقلة بمعان إضافية، لم يشر إليها النص القرآني؛ منها الختم الأبدي، وتستفاد من لفظة: (à jamais) ، والانسداد، ويستفاد من الفعل: (bouché).ثم إنه خلع وصفا على لفظة الغشاوة (épais)، وهذا لم يرد في الأصل.

ولست أدري لماذا لجأ المترجم إلى إفراد (القلب) في ترجمته، مع أن الآية الكريمة تتحدث عن القلوب؛ وبالمقابل أخذ بالجمع في (الآذان) . وقد سبق أن نبهنا في ترجمة حميد إلى أن الذي ورد في الآية هو السمع، وليس الآذان. كما عدل أحمد دروس عن التركيب القرآني، وما يتأسس عليه من غرض بلاغي؛ فمقابل:(وعلى أبصارهم غشاوة) في ترجمته هو :

un voile épais leur couvre la vue

وفي الترجمة إعراض بين عن التركيب الأصل: (تقدم الخبر شبه الجملة)، مع إمكانية اعتماد هذا التركيب في اللغة الفرنسية .

ج/ – تقديم المفعول به على الفاعل وجوبا:

ومنه قوله تعالى في الآية الرابعة والأربعين من سورة " المؤمنون":

(كل ما جاء أمة رسولها كذبوه).

– ورد في ترجمة حميد الله: (60)

Toutes les fois qu'à une communauté vint son messager, ils le traitèrent de menteur.

– وجاء في ترجمة أحمد دروس: (61)

Mais chaque fois qu'un prophète s'est présenté devant son peuple, il s'est fait traiter d'imposteur.

إن الآية الكريمة موضوع الترجمة تثير على المستوى التركيبي مسألة تقدم المفعول به: (أمة) على الفاعل: (رسولها). والتقديم في هذا الباب واجب؛ لأن الفاعل المتأخر، اتصل به ضمير يعود على المفعول المتقدم. ولو تقدم الفاعل هنا، لعاد ذلك الضمير على متأخر لفظا ورتبة؛ وهذا غير جائز. إن تقديم المفعول به في الآية يفيد غرض العناية ؛ فالمقدم محل الاهتمام.

وقبل فحص الترجمتين أود أن أشير إلى سمة الإيجاز في العبارة القرآنية، على خلاف ما عليه الأمر في الترجمتين.

كعادته في الترجمة، حاول حميد الله الاقتداء بالتركيب القرآني لنقل المعنى ؛ فقدم المفعول به: (Communauté) على الفعل، وأردفه بالجملة الفعلية: (Vint son messager) والضمير: (Son) يعود على المفعول به. ولاشك أن كلمة (communauté) المقدمة في ترجمته، هي محل العناية والاهتمام.

وحاول أحمد دروس الحفاظ على المعنى العام للآية دون التفات إلى خصوصية تركيبها، والدليل على ذلك أنه استهل ترجمته بأسلوب الاعتراض (opposition)/ Mais؛ وهذا غير وارد في الآية الكريمة. ثم إنه عدل عن تقديم المفعول به، وقدم الفاعل أولا: (Prophète)، ثم أردفه بالفعل: (s' est présenté)، فالمفعول: (son peuple). إن الفاعل في هذه البنية جرى على أصله الذي هو التقديم في اللغة الفرنسية، على خلاف ما عليه الأمر في ترجمة حميد الله.

ح/ "كل" الدالة على العموم:

ومنه قوله تعالى في الآية الثالثة والعشرين من سورة " الحديد":

(والله لا يحب كل مختال فخور).

– ورد في ترجمة حميد الله: (62)

Dieu, cependant, n'aime aucun présomptueux plein de gloriole.

– وورد في ترجمة أحمد دروس: (63)

Allah n'aime pas les fraudeurs présomptueux.

إن الآية الكريمة بنظمها تقتضي دلالة **سلب العموم:**

تقدم أداة النفي + أداة العموم = **سلب العموم**/ السلب لبعض الأفراد فقط.

وبالاحتكام إلى القاعدة المقررة فإن المعنى هو أن الله تعالى لا يحب بعض الناس من المختالين والفخورين؛ ولكن المراد من الآية غير ذلك؛ وهو أن الله تعالى لا يحب أي واحد اتصف بهذه الصفات. ومعلوم أن قاعدة سلب العموم قاعدة غير مطردة، فهي تخضع للسياق.

وأما قاعدة **عموم السلب** فتقتضي تقدم المسند إليه الدال على العموم، وبعده أداة نفي:

أداة العموم + أداة النفي= **عموم السلب**/ السلب لجميع الأفراد.

وفي ترجمة حميد الله نقل للمعنى العام للآية، ولدلالتها؛ فالآية الكريمة، وإن كان نظمها يفيد عموم السلب، إلا أن السياق يأبى تلك الدلالة، ويرفضها. واختفت أداة العموم (كل) في ترجمة حميد الله، وحضر النفي . ولو أردنا أن نأخذ بلفظ (كل) الدال على العموم في النقل، لكانت الترجمة:

Dieu, cependant, n'aime pas tout présomptueux plein de gloriole.

وهذه ترجمة لا تفي بالمعنى الذي يقصد إليه النص القرآني.

وجاءت ترجمة أحمد دروس مستوعبة المعنى العام للآية، ومعرضة إعراضا تاما عن التركيب القرآني.

خاتمة :

وبعد، فهذه بعض النماذج والصور من ترجمة بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم؛ ذلك أن الاستقصاء متعذر في هذا الباب. إن نقل هذا الأسلوب من النص القرآني إلى لغة أخرى مطلب في غاية التعقيد والصعوبة؛ لأننا هنا إزاء ملمح من ملامح النظم؛ وهو وجه إعجاز القرآن الكريم، وسر سمو هذه الرسالة الخالدة.

إن ترجمة هذا الأسلوب إلى اللغة الفرنسية مثلا، يطرح –كما تبين من خلال هذه النماذج– إشكالات، بعضها يرتبط بالتركيب، وبعضها بخصائص اللغات، وبعضها بالفهم، وبعضها بالعقيدة،....الخ ؛ هذا مع العلم أن مدونة اشتغالنا لا تضم نص ترجمة من إنجاز الآخر ، الذي يخالفنا في اللغة والدين والثقافة.

وقد كانت الغاية من تتبع الترجمتين هي الوقوف على مدى إصابة المترجم أو إخفاقه في نقل بلاغة هذا الأسلوب إلى اللغة الهدف. ويبدو أن أكثر المزالق في الترجمتين يرجع بالأساس إلى إغفال النظر في بلاغة النص القرآني، – والتي تنشأ بالأساس عن التراكيب النحوية – والاكتفاء بظاهر العبارة، دون النفاذ إلى أعماقها، للوقوف على أسرارها ودلالاتها [64]، مع ما يتطلبه ذلك النظر من إلمام حسن بعلوم اللغة العربية: معجما، ونحوا، وصرفا، وبلاغة...الخ . إن الرهان على لغة الهدف، دون قتل لغة النص الأصل يفوت على المترجم فرصة النقل السليم والأمين للنص من حيث معانيه العامة، كما يفوت عليه فرصة نقل شذور من بلاغته. وتصدق هذه الملاحظة في الحال العكس: (ضبط لغة النص الأصل دون اللغة الهدف). وهذا في الواقع مطلب صعب، نبه إليه الجاحظ في سياق حديثه عن شروط المترجم: " وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة، والمنقول إليها، حتى يكون فيهما سواء وغاية. ومتى وجدناه أيضا قد تكلم بلسانين، علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى، وتأخذ منها، وتعترض عليها، وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه، كتمكنه إذا انفرد بالواحدة، وإنما له قوة واحدة، فإن تكلم بلغة استفرغت تلك القوة عليهما، وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين، على حساب ذلك، تكون الترجمة لجميع اللغات. وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق ، والعلماء فيه أقل، كان أشد على المترجم، وأجدر أن يخطئ فيه. ولن تجد البتة مترجما يفي بواحد من هؤلاء العلماء" [65].

ولقد كان من مقاصد هذا العمل العلمي محاولة بناء نموذج: (إجراءات، وخطوات، وتقنيات) يمكن السير على منواله لترجمة بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم. ويحلو لي أن أسميه عمودا، قياسا على عمود الشعر.

إن كل عملية ترجمة للنص القرآني لا بد أن تستحضر مطالب هامة أربعة، هي على التوالي: مطلب الوعي الترجمي، والمطلب اللغوي، والمطلب الشرعي، والمطلب الثقافي. وهذه أصول يتأسس عليها كل فعل ترجمة [66].

أما ترجمة بلاغة أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم، فتقع في صميم المطلب اللغوي. ولتحصيل أعلى درجات هذه البلاغة، وتضييق منافذ ضياعها، ينبغي التوسل بالخطوات والإجراءات التالية:

+ رصد كل مواضع التقديم والتأخير في القرآن الكريم ، على اختلاف صور التركيب وأنواعه.

+ تصنيف المادة حسب موضوعات الآيات: (آيات العقيدة، آيات الأحكام، آيات المعاملات، ..الخ). إن الهدف من هذه العملية هو تبين نوع الترجمة التي تناسب كل جنس من هذه الأجناس؛ فخطورة الترجمة في موضوعات العقيدة والعبادات والمعاملات مثلا أخطر قياسا إلى باقي الموضوعات الأخرى.

+ النظر في أصول التقديم والتأخير كما تقرر ذلك لدى النحاة العرب.

+ النظر في أغراض هذا الأسلوب، وأسراره، ونكته، من خلال المصادر البلاغية.

+ النظر في مصنفات التفسير: (كتب معاني القرآن أولا/ ثم مصادر التفسير ذات النزوع النحوي والبلاغي، ومصنفات علوم القرآن).

+ النظر في هذا الأسلوب في دواوين فحول شعراء العربية.

+ الإلمام بنحو لغة الهدف وبلاغتها.

+ تمثل المعنى البلاغي لكل تقديم وتأخير في القرآن الكريم، قبل الإقدام على ترجمته.

+ اختبار مدى قدرة لغة الهدف على تحمل نظم التقديم والتأخير في كل آية، ثم اختيار المسلك المناسب في الترجمة، تلافيا للوقوع في الاختلاس الترجمي.

هوامش البحث:

1- انظر: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تحقيق السيد أحمد صقر، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، (د.ت)، ص: 16.

2- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، طبعة جديدة، منقحة، (1427هـ/ 2006م)، ص: 80.

3- دلائل الإعجاز، عبدا لقاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، الطبعة الخامسة، مكتبة الخانجي، القاهرة، (1424هـ/ 2004م)، ص: 249.

4- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة، بيروت، (1391هـ/ 1972م)، ج1: 466- 467.

5- التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، الطبعة الثانية، دار الكتب الحديثة، لبنان، (1396هـ/ 1976م)، ج1، ص: 27.

6- نفسه.

7- الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، دار إحياء التراث العربي، (1385هـ/ 1965م)، ج1، ص: 78.

8- الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، ضبط وتخريج أحاديث مشهور بن حسن آل سلمان، تقديم بكر أبو زيد، الطبعة الأولى، دار ابن عفان، (1421هـ)، ج1، ص: 105.

9- إتقان البرهان، فضل عباس، ج2، ص: 298.

10- ترجمان الفلسفة، محمد موهوب، ط1، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، (2011م)، ص: 92.

11- الكتاب، سيبويه، القاهرة، (1316هـ)، ج1، ص: 34.

12- شرح ابن عقيل على الألفية، تحقيق محي الدين عبدا لحميد، الطبعة الثانية، دار الطلائع، القاهرة ، ج2، ص: 61.

ومن هذا الضرب قول الأخطل: (ت 92هـ): (بالهامش).

قنافذ هداجون قد بلغت نجران أو بلغت سوآتهم هجر

13- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، القاهرة، (1371هـ/ 1952م)، ج2، ص: 282.

14- دلائل الإعجاز، ص: 106.

15- نفسه، ص: 111- 112.

16- نفسه، ص: 108.

17- نفسه، ص: 194.

18- نفسه، ص: 106- 107.

19- " تلخيص المفتاح" وجهود شارحيه: السبكي وابن يعقوب المغربي، عبدالله الرشدي، أطروحة دكتوراه، مرقونة بكلية الآداب، ظهر المهراز، فاس، موسم:2001/ 2202، ص: 62، وما بعدها.

20- مفتاح العلوم، أبو يعقوب السكاكي، ضبطه وكتب هوامشه نعيم زرزور، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، (1407هـ/ 1987م)، ص: 194، وما بعدها.

21- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق محمد محي الدين عبدا لحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، (1411هـ/ 1990م)، ج2، ص: 35.

22- الإكسير في علم التفسير سليمان بن عبد القوي الطوفي، تحقيق محمد عثمان، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، (2009م)، ص: 154، وما بعدها.

23- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، شمس الدين أبو عبدالله الزركي المعروف بابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

24- البرهان في علوم القرآن.

25- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثالثة، مكتبة دار التراث، القاهرة، (1405هـ/ 1985م)،ج3، ص: 33- 41.

26- دلائل الإعجاز، ص: 55- 56.

27- التطور النحوي، برجشتراسر، عنى بنشره حمدي البكري، القاهرة، (1929م)، ص: 87.

28- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، (1421هـ/ 2001)، ص: 209.

29- الخصائص، ابن جني، ج2، ص: 382- 390.

وراجع أيضا: الأصول في النحو، أبو بكر ابن السراج، ج2، ص: 231- 257.

30- مفتاح العلوم، ص: 113.

31- البيان في روائع القرآن، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، تمام حسان، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت، (1413هـ/ 1993م)، ص: 279.

32- اللغة، فندريس، تعريب الأستاذين: الدواخلي، والقصاص، القاهرة، (1950)، ص: 187.

33- البلاغة فنونها وأفنانها، علم المعاني، فضل الله حسن عباس، الطبعة الرابعة، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، (1417هـ/ 1997م) ص: 207.

34- دلائل الإعجاز، ص : 110- 111.

35- نفسه، ص: 87.

36- نفسه، ص: 84- 85.

37- البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، محمد العمري، الطبعة الأولى، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، (1999م)، ص: 356.

38- بيان إعجاز القرآن، الخطابي، ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله أحمد و محمد زغلول سلام، الطبعة الرابعة، دار المعارف، مصر، (1376هـ/ 1956م)، ص: 24.

39- راجع ترجمته في: مجلة البصائر، عدد: 5، 1986.

40- مقدمة ترجمة أحمد دروس لمعاني القرآن الكريم، الطبعة الأولى، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، (2003م)، ص: 5.

41- ترجمة حميد الله لمعاني القرآن الكريم، طبعة لبنان، ص: 427.

42- ترجمة معاني القرآن الكريم، أحمد دروس، ص: 331.

43- دلائل الإعجاز، ص : 113-114.

44- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، (1406هـ/ 1986م)، 1، ص: 124.

45- تفسير الجلالين، جلال الدين عبد الرحمان السيوطي، وجلال الدين محمد أحمد المحلي، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت، (1409هـ/ 1989م)، ص: 346.

وانظر: المنهل: قاموس فرنسي- عربي، سهيل إدريس، الطبعة الثانية والثلاثون، دار الآداب ، بيروت، (2004): (profaner).

46- ترجمة حميد الله، ص: 32.

47- ترجمة أحمد دروس، ص: 28.

48-الانتصاف من الكشاف، أحمد بن المنير، مطبوع على هامش (الكشاف)، ج1، ص: 212.

49- الكشاف، ج1،ص: 212.

50- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي، طبعة دار السرور، بيروت، (د.ت)، ج1، ص: 424.

51- دلائل الإعجاز، ص: 132-133.

52- ترجمة حميد الله، ص: 456.

53- دلائل الإعجاز، ص: 273.

54- ترجمة أحمد دروس، ص: 356.

55- ترجمة حميد الله، ص: 4.

56- ترجمة أحمد دروس، ص: 8.

57- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، بغداد، (1383هـ/ 1964م)، ص: 136.

58- الكشاف، ج1، ص: 48.

59- نفسه، ج1، ص: 50.

60- ترجمة حميد الله، ص: 449.

61- ترجمة أحمد دروس، ص: 350.

62- ترجمة حميد الله، ص: 722.

63- ترجمة أحمد دروس، ص: 578.

64- تصدق هذه الملاحظة إلى حد كبير جدا على ترجمة أحمد دروس.

65- الحيوان، ص: 76.

66- مقدمة عبد الحميد زاهيد لأعمال الندوة الدولية حول ترجمة بلاغة النص القرآني، من تنظيم مختبر ترجمة معاني القرآن، كلية الآدب بمراكش، ومؤسسة دار الحديث الحسنية للدراسات الإسلامية، الأردن، (2012م).